زينة الحياة الدنيا

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾.

[آل عمران: ١٤].

الموضع الذى تأتى فيه هذه الآية الكريمة هو: موضع ذكر المعركة الإسلامية التى جعلها الله آية مستمرة دائمة؛ لتوضح لنا أن المعارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع.

والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحِّى بكثير من ماله فى تسليح نفسه، وتسليح غيره أيضاً.

فمن يقعد عن الجهاد فى سبيل الله إنسان تغلبه شهوات الدنيا، فيأتى الحق سبحانه بهذه الآية بعد ذكر الآية التى ترسم طريق الانتصارات المتجددة لأهل الإيمان؛ وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من متعة القتال فى سبيل الله ولإعلاء كلمته يقول سبحانه: «زين للناس حب الشهوات» وكلمة «زين» تعطينا فاصلاً بين المتعة التى يُحلّها الله، والمتعة التى لا يرضاها الله؛ لأن الزينة عادة هى شىء فوق الجوهر، فالمرأة تكون جميلة فى ذاتها وبعد ذلك تتزين، فتكون زينتها شيئاً فوق جوهر جمالها.

فكأن الله سبحانه يريد أن نأخذ الحياة ولا نرفضها، ولكن لا نأخذها بزينتها وبهرجتها، بل نأخذها بحقيقتها الاستبقائية فيقول: «زين للناس حب الشهوات من النساء»، وما الشهوة؟ الشهوة: هى ميل النفس بقوة إلى أى عمل ما.

وحين ننظر إلى الآية فإننا نجدها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد

حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو الممقوت.

إن أعنف غرائز الإنسان هى غريزة الجنس. والحيوان يَفْضُل الإنسان فيها، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن أنثى الحيوان إذا تم لقاحها من فحل لا تُمكِّن فحلاً آخر منها، والفحل أيضاً إذا ما جاء إلى أنثى وهى حامل فهو لا يُقبل عليها، إذن: فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة، ولم تأخذها كالإنسان لذة متجددة.

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات، ونقول فى صفة شهوة الإنسان: إن عند فلان شهوة بهيمية، ويا ليتها كانت شهوة بهيمية بالفعل؛ لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضرورى، لكن نحن فلسفناها، إذن: فخروجك بالشىء عما يمكن أن يكون مباحًا ومشروعاً يسمى دناءة شهوة النفس.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه، والبقاء له نوعان: أن تبقى حياة الإنسان بالمطعم والمشرب، وتبقى حياة النوع الإنسانى بالتزواج.

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخلاَّق حكيماً عليماً، إنه يعلم أن طفولة أى حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه، ومثال ذلك: الحمامة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران، ثم لا تعرف أين- بعد ذلك - ذهب فرخها، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة، والتى أراد الله سبحانه لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شقاء حتى يبلغ الولد، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يحرص عليه الإنسان من شهوة، وما يتحمل من مشاق ومتاعب فى سبيل الاستمتاع بها واستبقائها، فقول الحق سبحانه: «زين للناس حب الشهوات من النساء» فمن المزين؟ إن كان فى الأمر

الزائد على ضروريات الأمر، فهذا من شغل الشيطان، وإن كان فى الأمر الرتيب الذى يضمن استبقاء النوع فهذا من الله سبحانه وتعالى.

ونجد الحق سبحانه وتعالى يضيف «البنين» إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكران، ولم يقل : البنات، لماذا؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعزوة - كما يقولون - ولا يأتى منهم العار، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العار، والمحبوب لدى الرجل فى الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة وينادون بها، سواء أكان رجلاً أم امرأة إن لم يرزقه الله بولد ذكر فإنه - أو إنها - تريد ولداً ذكراً.

ولكى يبيِّن الحق سبحانه وتعالى آداب العلاقة بين الزوج والزوجة يقول فى كتابه العزيز :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ .

[البقرة: ١٨٧].

يبيِّن لنا الحق سبحانه هنا آداب التعامل بين الزوجين فى أثناء الصيام، ويأتى هذا التداخل والامتزاج بين الموضوعات المختلفة فى القرآن لنفهم منه أن الدين وحدة متكاتفة تُخاطب كل الملكات الإنسانية، ولا يريد الحق سبحانه أن تظهر أو تطغى ملكة على ملكة أبداً.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ وساعة تسمع «أحل لكم» فكأن ما يأتى بالتحليل كان مُحرَّمًا من قبل،

والذى أحله الله فى هذا القول كان محرماً فى الصيام، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج، فكأن قبل أن تنزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء فى أيام الصيام - نهاراً وليلاً - حرامًا، فقد كان الصيام فى بدايته إمساكاً عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب، ولا اقتراب بين الزوجين فى الليل أو النهار، فكان الرفث فى ليلة الصيام محرمًا، وكان يحرم عليهم الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا.

وجاء رجل وقال لرسول الله ﷺ: ذهبت فلم أجد أهلى قد أعدوا لى طعاماً، فنمت، فاستيقظت يا رسول الله فعلمت أنى لا أقدر أن آكل ولذلك فأنا أعانى من التعب، فأحل الله مسألتين:

المسألة الأولى هى: الرفث إلى النساء فى الليل.

والمسألة الثانية قول الحق سبحانه: «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» أى: كلوا واشربوا إلى الفجر حتى ولو حصل منكم نوم، وهذه رخصة جديدة لكل المسلمين مثلها مثل الرخصة الأولى التى جاءت للمسافر أو المريض، كانت الرخصة الأولى بخصوص مشقة الصوم على المسافر أو المريض، أما الرخصة الجديدة فهى عامة لكل مسلم وهى تعميق لمفهوم الحكم.

وقد ترك الحق سبحانه هذا الترخيص مؤجلاً بعض الشىء لكى يدرك كل مسلم مدى التخفيف، لأنه قد سبق له أن تعرض إلى زلة المخالفة، ورفعها الله عنه، وانظر للآية القرآنية وهى تقول: ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ** ﴾.

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ وما دام هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، فيكون من رحمة الله بالإنسان - وقد ضَمَّ الرجلَ والمرأة لباس واحد- وبعد ذلك نطلب منهما أن يمتنعا عن التواصل.

إذن: فقوله تعالى: «تختانون أنفسكم» مسألة حتمية طبيعية، ولذلك قال الحق تعالى بعدها: «فتاب عليكم» ومعنى «تاب عليكم» هو إخبار من الله بأنه تاب، وحين يخبر الله بأنه تاب، أى: شرع لهم التوبة، والتوبة- كما نعرف- تأتى على ثلاث مراحل:

يشرع الله التوبة أولاً.

ثم تتوب أنت ثانياً.

ثم يقبل الله التوبة ثالثًا.

«وعفا عنكم» لأنه ما دام قد جعل هذه العملية لحكمة إبراز سمو التشريع الإسلامى فى التخفيف، فيكون القصد أن تقع هنا وأن يكون العفو منه سبحانه .

ويقول الحق تبارك وتعالى: «فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم» فلم يشأ أن يترك المباشرة على عنانها فقال: أنت فى المباشرة لابد أن تتذكر ما كتبه الله، وما كتبه الله تبارك وتعالى هو الإعفاف ، والإنجاب، فالمرأة تقصد إعفاف زوجها حتى لا تمتد عينه إلى امرأة أخرى، وهو يقصد أيضًا بهذه العملية أن يعفها حتى لا تنظر إلى غيره. والله سبحانه يريد الإعفاف فى تلك المسألة لينشأ الطفل - من هذا اللقاء- على أرض صلبة من الطهر والنقاء.

وحتى لا يتشكك الرجل فى بضع منه هم أبناؤه، والحق سبحانه يريد

طهرة الإنسان، فكل نسل يجب أن يكون محسوبًا على من استمتع، وبعد الاستمتاع، عليه أن يتحمل التبعة والمسئولية، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواء تبعة ذلك، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه.

﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى: ما كتب الله من أن الزواج للإعفاف والإنجاب، وفى ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«وفى بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله: أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر».

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ أي: إلى أن يتضح لكم الفجر الصادق، وكان هناك على عهد رسول الله ﷺ أذانان للفجر: كان بلال يؤذن بليل، أى: وما زال الليل موجودًا، وكان ابن أم مكتوم يؤذن فى اللحظة الأولى من الفجر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فإن سمعتم أذان ابن أم مكتوم فأمسكوا» لكن أحد الصحابة- وهو عدى بن حاتم- قال: أنا جعلت بجوارى خيطًا أبيض وخيطًا أسود، وأظل آكل حتى أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقالوا له: إنك لعريض القفا «أى: قليل الفطنة» فالمراد هنا بياض النهار وسواد الليل.

ويقول الحق عزَّ وجلَّ: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾. لقد كانوا يفهمون أن المباشرة فى الليل حسب ما شرع الله لا تفسد الصوم، ولكن كان لابد من وضع آداب للسلوك داخل المسجد أو لآداب سنة الاعتكاف التى سنَّها رسول الله ﷺ فى العشر الأواخر من رمضان.

لهذا بيَّن الحق سبحانه أن حلال المباشرة بين الرجل وزوجته هو لغير المعتكف وفي غير ليل رمضان، أما المعتكف في المسجد فذلك الأمر لا يحل له، ومعنى الاعتكاف هو أن تحصر حركتك في زمن ما على وجودك في مكان ما، ولذلك يقولون: «فلان معتكف هذه الأيام» أي: حبس حركته في زمن ما في مكان ما، وليس معنى ذلك أن الاعتكاف مقصور على العشر الأواخر من رمضان فقط، ولكن للمسلم أن يعتكف في بيوت الله في أي وقت.

واختلف العلماء في الاعتكاف، بعضهم اشترط أن يكون المرء صائمًا حين يعتكف، واشترطوا أيضاً أن يكون الاعتكاف لمدة معينة، وأن يكون بالمسجد، وقالوا: إن أردت الاعتكاف، فاحصر حركتك في مكان هو بيت الله.

وكثير من العلماء يقولون: إنك إذا دخلت المسجد تأخذ ثواب الاعتكاف ما دمت قد نويت سنة الاعتكاف؛ بشرط ألا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا؛ لأنك جئت من حركتك المطلقة في الأرض إلى بيت الله في تلك اللحظة، فاجعل لحظاتك لله تعالى.

ولذلك حينما رأى رسول الله ﷺ رجلاً ينشد ضالَّته في المسجد - أي: شيئاً قد ضاع منه - فقال له: «لا ردَّها الله عليك فإن المساجد لم تُبنَ لهذا».

لماذا؟ لأن المسجد مكان للعبادة، ولذلك أقول لمن يحدثني في المسجد بأي شيء يتعلق بحركة الحياة: «أبشرْ بأنها لن تنفع»؛ لأنك دخلت المسجد للعبادة فقط، إن لحظة دخولك المسجد هي لحظة جئت فيها لتقترب من ربك سبحانه وتناجيه، وتعيش في حضن عنايته، فلماذا تأتي بالدنيا معك؟ وليكن لنا في أحد الصحابة قدوة حسنة؛ كان يقول: كنا نخلع أمر

الدنيا مع نعالنا، وزاد صحابى آخر فقال له: وزِدْ يا أخى أننا نترك أقدارنا مع نعالنا.

انظر إلى الدقة، إن الصحابى المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد، ولكن يخلع أيضًا قَدْره فى الدنيا، فيمكن أن تأخذك الدنيا ساعات اليوم الكثيرة، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل، فضع قدرك مع نعلك خارج المسجد، وادخل بلا قَدْر إلا قَدْر إيمانك بالله، واجلس فى المكان الذى تجده خاليًا، فلا تتخطَّ الرقاب لتصل إلى مكان معين فى المسجد، فأنت تدخل بعبودية لله وقد يأتى مجلسك بجانب من يخدمك، والصغير يقعد بجانب الكبير، ولا تلحظ لك قدرًا إلا قدرك عند الله.

إن النبى ﷺ كان يجلس حيث ينتهى به المجلس أى: عندما يجد مكانًا له، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنسان مكانًا لإنسان آخر بالسجادة، وقد يدخل إنسان ليتخطى الرقاب، ليجلس فى الصف الأول وهو لا يعلم أن الله قد صف الصفوف قبل أن يأتى هو إلى المسجد، وما دُمنا سنترك أقدارنا فلا تقل أين سأجلس وبجوار من؟ بل اجلس حيث ينتهى بك المجلس ولا تتخط الرقاب، وانْوِ الاعتكاف ولا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخل فى دعوة رسول الله ﷺ بألا يبارك الله لك فى الضالة التى تنشدها وتطلبها.

وكان رسول الله ﷺ يعتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان، فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا فى المساجد؟ لا؛ إن الاعتكاف يصح فى أى مكان، ولكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل؛ لأنك تأخذ فيه بالزمان والمكان معاً.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ

اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ ومعنى «الحد»: هو الفاصل المانع من اختلاط شيء بشيء، وحدود الله هى محارمه.

والرسول ﷺ يقول:

«.. ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا إن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه».

إذن: فالمحارم هى التى يضع الله لها حداً فلا نتعداه، ولنا أن نلحظ أنه ساعة ينهى الله عن شيء فهو يقول: «فلا تقربوها» وساعة يأمر بأمر يقول سبحانه: «فلا تعتدوها»؛ وفى ذلك رحمة من الله بك أيها المؤمن.

فلا تجعل امرأتك تأتيك وأنت فى معتكفك؛ فقد تكون جميلة، صحيح أنك لا تنوى أن تفعل أى شيء، لكن عليك ألا تقرب أسباب النواهى، ومثال ذلك: تحريم الخمر، لقد أمر الحق سبحانه باجتنابها أى: ألا تقرب حتى مكان الخمر؛ لأن الاقتراب قد يُزين لك أمر احتسائها، إذن: فلكى تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألا تقرب النواهى، وفى الأوامر عليك ألا تتعداها.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة المائدة:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ .

[المائدة: ٥].

يبدأ الحق سبحانه الآية بقوله: «اليوم أحل لكم الطيبات» ليؤكد على

أن لإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب إلا من زاوية أنه مُحلَّل من الله

والحق سبحانه يقول: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم» فهل كل طعام أهل الكتاب حل لنا؟ إن بعضهم يأكل الخنزير. لا، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذى يكون من جنس ما حلل الله لكم، ولا يستقيم أن يستنكف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذى ارتبط بالسماء ارتباطاً حقيقياً كالمسلمين، ومن ارتبطوا بالسماء وإن اختلف تصورهم لله، يريد سبحانه أن يكون بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعاً بالسماء، ويجب أن يعاملوا على قدر ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسماء.

إياك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب. لا، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من جنس الطعام المحلل فى الإسلام فهو حلال، ولا يصح أن تمنع واحداً من أهل الكتاب من طعامك؛ لأن الله سبحانه يريد أن ينشىء شيئاً من الألفة يتناسب مع الناس الذين سبق أن السماء لها تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا فى تصوره.

وضرب لنا الحق سبحانه المثل مع رسول الله ﷺ، ففى أول مجىء الدعوة الإسلامية، واجهت معسكراً ملحداً يعبد النار، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر فارس؛ ومعسكراً يؤمن بالإله وهو معسكر الروم؛ كانت هناك قوتان فى العالم: قوة شرقية وقوة غربية، وعندما يأتى رسول ليأخذ الناس إلى طريق الله، فلابد أن يكون قلبه- وقلوب المؤمنين معه- مع الذين آمنوا بإله وبمنهج ورسالة، ولا يكون قلبه مع الملاحدة الذين يعبدون غير الله.

ولنر العظمة الإيمانية فى الرسول ﷺ نجد الذين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أولَى عنده ممن يكفرون بالله، ولذلك عندما قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولاً لفارس، وكانت عواطف الرسول ﷺ والذين آمنوا معه مع الروم؛ لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد- وإن كانوا يكفرون بمحمد - فقد كانوا يؤمنون بالله، وأن هناك منهجاً وهناك يوم بعث، ولذلك يضربها الحق سبحانه وتعالى مثلاً فى القرآن ليعطينا عدة لقطات، وأولى هذه اللقطات هى أن المسلمين فى جانب من عنده رائحة الإيمان، فيقول سبحانه:

﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤ ﴾ .

[الروم: ١ ـ ٥].

وتبدأ هذه الآيات بخبر عن هزيمة الروم، ثم نبوءة من الحق سبحانه وتعالى بأنهم سيَغلبون فى بضع سنين، ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله، وتنظر القوة الإسلامية التى جاءت لتؤسس ديناً واسعاً جامعاً مانعاً إلى معركة بين دولتين عظميين كلتيهما على أقصى ما يكون من الرقى الحضارى، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم ويحزن المسلمون لأن الفرس قد غَلَبت، فيأتى الحق سبحانه بالخبر اليقين وهو انتصار الروم.

من الذى يستطيع أن يحكم فى نهاية معركة بين قوتين عظميين؟ إنه حكم لا يستغرق يوماً، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مدداً قادماً للقوة التى ستنتصر، إنه حكم يستغرق بضع سنين، فمن الذى يستطيع أن يتحكم فى معركة ستحدث بعد بضع سنين؟ لا يستطيع الرسول ﷺ أن

وأسلحتها، لكن الأمر يأتى كخبر موثق من الله تعالى:

﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾.

[الروم: ٣].

وهذا كلام موثق، لأنه قرآن مسطور يقرأه المؤمنون تعبدًا، وعندما سمع أبو بكر الصديق هذه الآية، قال: لقد أقمت رهانًا بأن الروم ستنتصر بعد ثلاث سنين، وطالبه الرسول ﷺ أن يمد مدة الرهان لأن الله سبحانه قال: «فى بضع سنين» والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، ولذلك قال النبى ﷺ لسيدنا أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ: فَزايِدْهُ فى الخطر ومادّه فى الأجل فجعلت مائة قلوص «ناقة» إلى تسع سنين، كأن هذا الأمر قد لقى الوثوق الكامل من المؤمنين؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر.

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول ﷺ كانت مع الذين يؤمنون بكتاب وبرسول، ونحن هنا نجد الحق سبحانه يحلل لنا مطاعمة أهل الكتاب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بإله وبمنهج السماء: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم».

وبيَّن الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى حينما قال:

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

[الممتحنة: ٨، ٩].

فالحق سبحانه يريدنا أن نوازن فى أسلوب تعاملنا فلا نسوى بين ملحد مشرك ومؤمن برسالة سماوية- وإن كفر برسول الله- وأن يكون هناك قدر

مشرك ومؤمن برسالة سماوية- وإن كفر برسول الله- وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل الإنسانى، فالذى يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذى يكون حلالاً فى منهج الإسلام، ويجب أن ينتبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تدخلها الخمور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم فى ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال لنا، فلا يشرب المسلم خمرًا، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير.

والطعام -كما نعلم- وسيلة لاستبقاء الحياة، وها هو ذا سبحانه ينتقل إلى استبقاء النوع وهو التناسل؛ فقد أحل الله تبارك وتعالى لنا أن نتزوج من بناتهم «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان».

والمحصنة لها معنيان: وهى إما أن تكون الحرة فى مقابل الأمة، وإما أن تكون المتزوجة؛ لأن الإحصان يعنى: الوقاية من أن تختلط اختلاطاً غير شريف، وكانت الحرة قديماً لا تفعل الفعل القبيح، وكان البغاء مقصوراً على الإماء؛ لأن الأمة لا أب لها ولا أخ ولا عائل، وهى مُهْدَرة الكرامة، ولذلك نجد أن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان عندما سمعت عن الزنا من رسول الله ﷺ تساءلت: يا رسول الله أَوَ تزنى الحرة؟! كأن الحرة لم تكن لتزنى فى الجاهلية؛ لأن الحرة تستطيع أن تمتنع عكس غيرها.

والمحصنة أيضًا هى المتزوجة، ويساوى الحق سبحانه بين المحصنة من المؤمنات والمحصنة من أهل الكتاب، والمراد هنا الحرة العفيفة، ويشترط المهر لكل واحدة منهن.

وبعض العلماء يقول: عندما تتزوج مسلمة يكفى أن تسمى لها المهر، لأن الدين الواحد يعطى الأمان العهدى، أما الزواج من كتابية فيجب أن

يحدد الإنسان المهر وأن يقرره وأن يوفى بذلك فالإيتاء هو أن يسمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه الشهود. ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخراً، وبشرط أن يكون الرجل محصنًا أى: متعففاً.

ويحدد الحق سبحانه الأمر بقوله : «غير مسافحين ولا متخذى أخدان» أى: صدائق لهم دون زواج، والسفح: هو الصب. والمرأة البغى هى من يسفح معها أى رجل، والخدن: هى الخليلة أو العشيقة دون زواج، والخدن كذلك يطلق على الذكر كما يطلق على الأنثى، وإياك أن تفكر فى أمر إقامة علاقة زواج متعة، بل لابد أن يكون الإقبال على الزواج بنية الزواج المستمر لا الزواج الاستمتاعى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين»؛ لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام ممن آمن به إلهاً وينفذها، فإن سترت شيئاً من أحكام الله التى آمنت بها فقد كفرت بالإيمان، والحق سبحانه لا يضره أن يكفر الناس جميعاً؛ لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متّصف بكل صفات القدرة والكمال.

إذن: فالعلم كله لا يضيف إلى الله شيئاً، فقبل أن يخلق الله سبحانه الإنسان كانت كل صفات الكمال موجودة لله، وكل ثمار الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على الإنسان، فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التى شرعها الله له، وستر حكماً منها فكأنه كفر بقضية الإيمان، وإن أنكر جزئية من جزئيات الإيمان، فهذا لون من الكفر، ويا ليت من يفعل ذلك أن يقول: «إن هذه الجزئية صحيحة ولكن لا أقدر على نفسى».

ففى هذه الحالة يكون الإنسان مؤمناً عاصياً يستغفر الله أو يتوب، أما الكفر فلا. والكفر بالإيمان يؤدى إلى حبط العمل، وهذا دليل على أن

الحق سبحانه يخاطب إنساناً يلتزم فى بعض الأشياء ولا يلتزم فى البعض الآخر، وهنا يبيِّن الحق سبحانه للإنسان: إن ما أديت من خير فى أعمالك سيذهب بثوابه ويحبط جزاءه ما منعت تنفيذه من أحكام الله وجاء الحق سبحانه بكلمة «حبط» التى تدل على أن العمل بطل وذهب ذهاباً لا يعود، فالماشية حين تأكل طعاماً ثم ينضج بعد وإن كان من جنس ما تطعم مثل البرسيم فى بدايته ويسمى «الرِّبة»، هذا اللون من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يحدث لها انتفاخ فى البطن وتموت.

والعرب تسمى هذا الداء الحُبَاط، فالحَبَط- إذن -هو انتفاخ البطن فى الماشية التى تأكل أكلاً غير مناسب لها، ويظن صاحبها أنها قد سمنت بينما هى تموت .

وكذلك يكون العمل على غير ما شرع الله سبحانه وتعالى.